



مركز نماء للبحوث والدراسات  
Namaa Center for Research and Studies  
نماء واتصال

namacenter

## أوراق نماء



مراجعة كتاب  
الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللايقين)  
مراجعة: عماد الدين عشماوي  
المؤلف: زيجمونت باومان  
المترجم: حجاج أبو جبر

**مراجعة كتاب  
الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللايدين)**



# مراجعة كتاب

الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللايقين)

المؤلف: زيجمونت باومان

المترجم: حجاج أبو جبر

الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر

الطبعة الأولى: م ٢٠١٧

عدد الصفحات: ١٢٨ صفحة

# الكتويات

الصفحة	الموضوع
٧	١- زمن الحداثة السائلة
٨	٢- فكرة الكتاب
٩	٣- دولة عاجزة
٩	٤- مجتمع الخوف
١٠	٥- الساسة ورأسمال الخوف
١٠	٦- الساسة والإرهابيون: صفة متبادلہ والخاسر الناس
١٠	٧- نفایات بشریة
١١	٨- ما الذي فعلته الرأسمالية المتوحشة بالبشر؟
١١	٩- مؤقتون دائمون
١٢	١٠- مدن أم ساحات معارك
١٢	١١- السوق المعلومة والقانون والعدل: جدلية الحضور والغياب
١٣	١٢- انتهاء زمن يوتوبية الحداثة الصلبة
١٣	١٣- حارس ويستاني وصياد
١٣	١٤- يوتوبية أهل الصيد
١٤	١٥- ما العمل؟
١٧	خاتمة



الزمان عملية واحدة تعاقبية بين الليل والنهار، فكيف يصير الزمان الواحد أزمنة كثيرة؟ وكيف يمكن للأزمنة أن تسيل؟ وكيف تتأثر حيوانات البشر بتلك الأزمنة السائلة؟ هذا هو ما يحاول زيجمونت باومان الإجابة عنه في هذا الكتاب.

وزيجمونت باومان (١٩٢٥-٢٠١٧) عالم الاجتماع والفيلسوف المعروف، عمل على مجالات بحثية عديدة ابتدأه من صراع الطبقات في المجتمع، وانتهاءً بدراسة الحداثة وتحولاتها وتأثيراتها على مجمل حياة البشر. تخطت مؤلفاته الخمسين كتاباً، بخلاف مئات المقالات والمقابلات والحوارات. ومن أهم مؤلفاته: أهل التشريع وأهل التأويل -الحداثة والهولوكوست- الحداثة والإبهام - غرباء على بابنا، بالإضافة إلى سلسلة السوائل، التي ينتهي إليها هذا الكتاب.

ويذهب باومان من خلال نظريته عن الحداثة السائلة، إلى أن السيولة هي مفتاح فهم عصرنا الدائم التغيير. وفي كتابه الذي بين أيدينا «الأزمنة السائلة»: «العيش في زمن الالاقيين» المكون من خمسة فصول، يحاول قراءة زماننا السائل وما يحدّه في حياة أبناء آدم، وكيف صارت «السيولة» نموذجاً لنمط الحياة التي يعيشها إنسان العصر الحديث.

## ١- زمن الحداثة السائلة

بداية لا يمكن فهم أي جزء من أجزاء سلسلة السوائل، دون قراءة متمعنة للكتاب العمدة فيها «الحداثة السائلة»، الذي أودع فيه باومان رؤيته لمفهوم الحداثة السائلة، وأجمل تأثيراتها على مختلف جوانب الحياة، ثم طفق في باقي السلسلة يطبقه على جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة في أوروبا وبقية العالم.

يرى باومان أن العالم انتقل من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة، وأن الحداثة الصلبة، التي كانت ترى الزمن الأبدى هو الباعث الأساس على الفعل، والمبدأ الذي تقوم عليه، تحولت إلى الحداثة السائلة لا ترى للزمن الأبدى أي دور، فقد حل مصطلح الأجل القصير محل مصطلح الأجل الطويل، وجعل الآنية

مثله الأسمى. ومن ثم فإن الخروج من بؤس الحداثة السائلة، يحتاج أن يفهم المرء قدره، وأن يعي اختلاف قدره عن مصيره، وأن يعرف الشبكة المعقدة للأسباب التي أتت بذلك القدر، واحتلافة عن ذاك المصير، وأنه حتى يعمل المرء في العالم (لا أن يخلق العالم) لا بد من أن يعرف كيف يجري العالم<sup>(١)</sup>.

وفي زمن الحداثة السائلة، نجد أنفسنا -بعكس أسلافنا في عصر الحداثة الصلبة- نفتقر إلى صورة واضحة «لوجهة» نبدو أنها نتوجه إليها ونقتضيها ... وفي هذا الزمن نشعر، أكثر مما نعلم، أن السلطة (أي القدرة على فعل الأشياء) قد انفصلت عن السياسة (أي القدرة على تحديد الأشياء التي ينبغي فعلها وإعطاؤها الأولوية)<sup>(٢)</sup>. فنحن نعيش في زمن المتأهة، وهي الصورة المجازية الكبرى للوضع الإنساني في زمن الحداثة السائل، حيث المصادفة والمفاجأة تهيمنان على عالمنا<sup>(٣)</sup>.

في ضوء هذا الفهم لسيولة الزمن، يشرح باومان أهم الأزمات التي يواجهها إنسان اللحظة الراهنة على كوكب الأرض.

## ٢- فكرة الكتاب

يناقش باومان في هذا الكتاب تداعيات حالة السيولة التي صار عليها عالمنا المعاصر، وما تبعه من تحلل الأبنية والمؤسسات والعادات وأنماط السلوك القديمة، والتي خلقت وضعًا جديداً وتحديات كبيرة لطرق الحياة الفردية والجماعية، وتأثيرات ذلك على دور ووظيفة الدولة، في ظل عولمة شاملة وليبرالية السوق المتوضحة التي تعيش على السيولة الكاملة وتنتهي لها باعتبارها يوتوبياها المفضلة، والتي أسهمت في وقوع الطلاق شبه البائس بين السلطة والسياسة.

---

(١) باومان، زيجمونت الحداثة السائلة: ترجمة حاجج أبو جبر، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٦م، ص ٢٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣.

وكيف يؤدي ذلك إلى تقويض أساس الاجتماع السياسي التي عاشت عقوداً في دول الرفاهة الاجتماعية الغربية؟ والآثار الناتجة عن ذلك: انهيار الأفكار الكبيرة والاليتوبيات، وتفسخ شبكات العلاقات الاجتماعية، وتفشي الفردية، وتنامي المشكلات العالمية التي لم تجد حلولاً جذرية، وفي مقدمتها الهجرة واللجوء. وكيف يمكن للملاليين من البشر الذي لا يمكنهم مقاومة تيارها الجارف، في ظل تخلي الدولة عن مهامها وعن رعايتها لتصبح حارسة لمصالح أهل الصيد الجدد، أن يتحملوا تبعات هذا الزمن السائل؟ (ص ٢٥-٢٧)

### ٣- دولة عاجزة

يرى باومان أن الدولة القومية التي أمنت لعقود الحماية لمواطنيها (بمعنى التأمين الجماعي ضد المصائب الفردية)، وليس مجرد إعادة توزيع الثروة بين الأفراد. لم تعد قادرة -لأسباب عديدة- على القيام بمهامها نفسها اليوم، خصوصاً مع صعود نجم الليبرالية الجديدة، فقدت حصونها كلها الواحد تلو الآخر، والتي جعلتها ملاذاً لمواطنيها، وتركتهم في العراء دون مؤسسات تحميهم ولا دولة ترعاهم، بسبب سيادة ديانة السوق. وأصبح الفرد مسؤولاً وحده، عن البحث عن حلول فردية لمشكلات اجتماعية تفوق قدراته، وإيجاد هذه الحلول وتطبيقها بأدوات وموارد غير كافية. (ص ٣٧)

### ٤-مجتمع الخوف

قامت فكرة المجتمع المفتوح في أوروبا، على أساس مجتمع متضامن حر يقرر مصيره ويرعى انفتاحه، في ظل دولة ترعى مصالح مواطنيها وتحمي كرامتهم، لكنها اليوم تعني تجربة مفزعة لأناس يعانون من التبعية والعجز والبؤس، أناس يواجهون قوى لا يسيطرون عليها ولا يفهمونها تماماً، بل ويسيطرون من جانبها، إنهم أناس يفزعهم عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم، وينشغلون تماماً بالإغلاق المحكم لحدودهم وتأمين الحياة داخلها. وصار المجتمع المفتوح اليوم، مجتمع مفتوح لضربات القدر العالمية. (ص ٣١)

## ٥-السياسة ورأسمال الخوف

ويعتقد باومان أن انسحاب الدولة وتفكك المؤسسات التي نمت في ظلها وحافظت على القيم والمؤسسات وأنماط السلوك القادرة على تجميع المواطنين حول دولهم ومجتمعهم، أفسح المجال لسياسة من نوع جديد، تقوم على الاستثمار في رأس المال الخوف الذي صار موجوداً في كل قلب ومكان داخل مجتمعات اليوم. وصار هذا الخوف هو فرصة الساسة الجدد للوصول إلى السلطة والحفاظ عليها، وأصبح استغلاله أربح تجارة في عالمنا. (ص ٣٥-٣٩).

ففي ظل خوف محقق بالجميع من الجهات كلها وتحول السلامة الشخصية للأفراد إلى قضية سياسية كبرى، غطت على انتهاك الحقوق الاقتصادية والاجتماعية الدائم. انتشر نمط السياسيين البيروقراطيين، الذين لا يعيرون قيم الديمقراطية والحفاظ عليها أي أهمية، في مقابل اهتمامهم بصورتهم الشخصية ورغبتهم في المزيد من السلطة، من خلال الاستثمار في خوف المواطنين الأوروبيين من الغرباء والإرهابيين وال مجرمين، وكل من يمكن أن ينبع معيشتهم من أجل الفوز بالحكم دورة أخرى.

## ٦-السياسة والإرهابيون: صفقة متبادلة والخاسر الناس

لكن الاستثمار الكبير في الخوف كما يقول باومان لم ينتج الأمان للخائفين -كما أملوا- لكنه أنتج القوة للسياسة والإرهابيين على حد سواء. فالإرهابيون استفادوا من إنفاق المبالغ فيه على الأمان في نشر معدلات أعلى من الرعب في القلوب بعملياتهم الإرهابية من ناحية، ومن ناحية أخرى بما تبته قوات الأمن بين الناس من إحساس بالخوف، بما يحقق غرض الإرهابيين بما يفوق قدراتهم أنفسهم. ويتحقق أهداف السياسيين في نشر الرعب والخوف من الإرهابيين والغرباء، فيظلوا في مراكز سلطتهم آمنين أطول مدة ممكنة.

## ٧- نفaiات بشرية

والقضية الهامة الثانية التي يتناولها باومان بالتشريع، هي قضية اللاجئين، التي تمثل في وجهة نظره، أبغض تبعات الانتصار العولمي للحداثة. فكل قاعدة/

بلد تغزوها الأسواق الرأسمالية تضيف آلاً فاً جديدة - وربما ملايين - إلى أعداد المحرورين الذين اقتلعوا من أراضيهم ومصانعهم وشبكات الأمان الاجتماعي التي كانت تحميهم، وألقوا في أتون التهجير والنفي والمحروب والعنف. وهؤلاء - برأي باومان - الذين يتجاوزون قدرة الكوكب على إدارة مشاكلهم، ربما تختنق الرأسمالية وتكون نهايتها على أيديهم وبسببهم. (ص ٥٠-٥١)

## ٨- ما الذي فعلته الرأسمالية المتوحشة بالبشر؟

يرى باومان أن رأسمالية السوق قد فعلت أمرين غاية في الخطورة: الأول: سد المنافذ التي أتاحت في الماضي إمكانية تصريف وتطهير منظمين لجيوب حديثة وتحديثية قليلة نسبياً من «فائضها البشري» مع تقلص وربما اختفاء «الأراضي المهجورة» التي كانت بمثابة المنفذ الرئيس للتخلص من النفايات البشرية (ص ٥١) والثاني: انتقال مصادر الخطر إلى قلب المدينة، التي شيدت في الأصل لتوفير الأمان لجميع سكانها، فصارت ترتبط في هذا الزمن في الغالب بالخطر أكثر من ارتباطها بالأمان. (ص ٩٠-٩٤)

## ٩- مؤقتون دائمون

وبتحليله العميق يرسم باومان صورة اللاجئ الغريب بمساتها كلها، فمحاولات الاندماج كلها في المجتمعات الجديدة، محكومة بالفشل. فأهل البلاد الذين فقدوا الأمان ودولة الرعاية والأفكار الكبرى وصاروا يواجهون مصائرهم بأنفسهم يمتلكون بالخوف، والغريب اللاجيء يزيد من مخاوفهم، والحكومات التي تعيش على الخوف تصوّره شريراً خطيراً يريد أن يسلبهم ما تبقى من أمنهم وأمانهم وحقوقهم وهويتهم.

ولهذا يظل اللاجئون عالقون في المكان وليسوا منه، مؤقتون دائماً، لا يتتمكنون إلى البلد الذي شيدت على أرضه الحدودية مساكنهم المتنقلة أو نسبت عليها خيامهم، كما يفصلهم عن أهله حجاب خفي منيع من الشك والكراهية، فهم معلقون في فراغ مكاني توقف فيه الزمن، فلا هم مستقررون، ولا هم متنقلون، ولا هم من أهل القعود، ولا هم من أهل الترحال. (ص ١٦)

## ١٠ - مدن أم ساحات معارك

وفي ضوء هذين الأثنين السالبين للرأسمالية المعلمة، ينظر باومان إلى المدن المعاصرة، باعتبارها ساحات معارك، تلتقي فيها القوى العولمية، والمعاني والهويات الممتعنة في المحلية، وتصادم، وتصارع، وتحث عن تسوية مقبولة أو يمكن احتمالها. في نمط للتعايش المشترك يأمل في سلام دائم، لكن القاعدة تثبت أنه مجرد هدنة، واستراحة لإصلاح الدفاعات المحطمة، وإعادة نشر الوحدات القتالية؛ فالمواجهة هي التي تحدد حركة المدينة «الحديثة السائلة» وترشدتها وليس التعايش. (ص ٩٨)

فقد صارت المدن مقابر قمامنة لنفایات العولمة (المهاجرين واللاجئين والمنفيين وطالبي اللجوء السياسي)، لا يقدر سكان المدن ونوابهم المنتخبون على مواجهتها بالشكل اللائق، ولا يمكن لهم إنجازها مهما أتوا من ملكات الخيال، فهي مهمة تتطلب إيجاد حلول محلية لتناقضات عولمية. (ص ١٠٠)

## ١١ - السوق المعولمة والقانون والعدل: جدلية الحضور والغياب

يرى باومان أن هناك علاقة مباشرة بين انتشار العولمة السلبية القائمة على تنافسية السوق التي لا تعرف القيم أو العدل، وبين غياب القانون، ومن ثم انتشار الظلم والعنف والإرهاب والتعصب والفاشية وغيرها من أمراض الحضارة. فانفتاح المجتمعات بفعل العولمة السلبية، هو نفسه السبب الرئيس للظلم، ومن ثم فهو بطريقة غير مباشرة السبب الرئيس للصراع والعنف (ص ٣١). كما أن تحرير السوق الذي يؤدي إلى غياب القانون، والعنف المسلح، يغذي الواحد منهما الآخر، ويعزز الواحد منهما الآخر، ويُشعل الواحد منهما الآخر. (ص ٣٢)

وتعتبر حكومة الولايات المتحدة وولاياتها التابعة التي تختفي تحت مسميات «البنك الدولي» و«صندوق النقد»، «منظمة التجارة العالمية» هي الجالبة لأكثر الآثار الجانبية خطورة في عالمنا: القومية، والتعصب الديني، والفاشية، والإرهاب، وهي آثار تقدم خطوة بخطوة مع تقدم العولمة الليبرالية (ص ٣٢-٣١) حتى صارت الأرض التي يفترض أن يقف عليها مستقبلنا هي أرض رخوة لا مكان فيها للعاديين من البشر، بعد أن تحولت فكرة التقدم إلى واقع مرير

وجبرية متطرفة، ولم تعد توحى بالأمال الكبرى والأحلام الجميلة، بل صارت تشير إلى معاناة الأرق أو كوابيس الخوف من «التخلف عن ركب السائرين» (ص ٣٤).

## ١٢ - انتهاء زمن يوتوبيا الحداثة الصلبة

اليوتوبيا -كما يقول باومان- هدف بعيد مرغوب فيه للغاية، ينبغي أن يجمع الحالمين، وأن يخدم الحاجات البشرية على نحو أفضل، ولكن في الأحلام المعاصرة يبدو أن صورة «التقدم» قد انتقلت من خطاب «التحسين المشترك» إلى خطاب «البقاء الفردي»، فلا يذكر الآن في سياق رغبة في الاندفاع إلى الأمام، بل سياق محاولة يائسة للبقاء في السابق. (ص ١١٧)

## ١٣ - حارس وبستانى وصياد

ويرى باومان أن انتهاء زمن اليوتوبيا، هو نتاج التغيرات التي مرت بها البشرية من عالم ما قبل الحداثة مروراً بالحداثة الصلبة وانتهاء بحداثة زماننا السائل، فقد مر عالمنا بمراحل ثلاث:

- ١- مرحلة «حراس الصيد»، في العصر ما قبل الحداثي، الذي كان تجسيداً لقانون الله، وكيفية اتباعه وعدم مخالفته، والحفظ على كونه كما وهبنا إياه.
- ٢- مرحلة «أهل البستانة»، الذين هيمنوا على المشهد في زمن الحداثة الصلبة، والذين يهندسون العالم ويغيرونها ويخلقونه ويديرونه من دون رعاية الإله، فقد صار الإنسان هو المسيطر على الكون. (ص ١١٣)
- ٣- مرحلة «أهل الصيد»، الذين لا يهتمون بتوازن الأشياء الطبيعية أو المرسوم، ولا بالقيم أو الإله أو حتى الإنسان، فال مهممة الوحيدة لهم هي صيد «فرائس جديدة» وكبيرة بما يكفي لملأ حقائب الصيد عن آخرها. (ص ١١٤)

## ١٤ - يوتوبيا أهل الصيد

في حين كانت اليوتوبيات الباكرة تتصور نقطة تعطل الزمن، واستمدت قواها الجاذبة من وعدها بنهاية الكدح، صارت اليوتوبيا في زمن أهل الصيد، الحلم بتخفيف رهبة الالاقين، واستدامة السعادة بتغيير الأنما، وحلم تغيير الأنما بتغيير أثوابها. (ص ١٢٠)

إن يوتوبيا أهل الصيد، هي يوتوبيا من دون نهاية، وحلم بكدح لا ينتهي، لكنها تعد بالجائزة بعيدة المنال نفسها التي تلوح بها اليوتوبيات جميعها، إنها تعد بحلٍّ نهائيٍ جذريٍ للمشكلات البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل، وبعلاجٍ نهائٍ وجذريٍ لأحزان الوضع الإنساني وأوجاعه؛ إنها يوتوبيا غير معهودةٍ بالأساس، لأنها قد نقلت أرض الحلول والعلاجات من «بعيد» إلى «هنا والآن». فأهل الصيد لا يعيشون من «أجل» يوتوبيا، لكن يتاح لهم العيش «داخل» يوتوبيا. كانت اليوتوبيا من منظور أهل البستانة هي نهاية الطريق، أما أهل الصيد فوجدوا أنها الطريق نفسه. (ص ١٢١-١٢٢)

ومن المنطقي في عالم يسكنه صيادون في الأغلب الأعم، ألا يوجد سوى مجال ضئيل -إن وجد أصلاً- للتأملات اليوتوبية، ولن يوجد على الأرجح أناسٍ كثيرون يتعاملون بجدة مع النماذج اليوتوبية، إذا ما عرضت عليهم للنظر فيها. ولو وجد أحدٌ يعلم كيف يجعل العالم أفضل حالاً، وأخذ على عاتقه مهمة تحسينه للأفضل بإخلاص، فإن السؤال المحير بحق سيكون: من له سعة الحيلة والإرادة القوية الكافية لفعل ما ينبغي فعله؟ (ص ١١٥)

## ١٥- ما العمل؟

في الأزمنة السائلة -كما يقول باومان- لا توجد فراغات ولا مجاهل في الخريطة المعرفية، فأي شيء يحدث في أي مكان يعرفه الجميع ويصل إلى الجميع. كما أن ما يحدث في مكان ما يؤثر في الطريقة التي يعيش بها الناس في المناطق الأخرى كافة، وفي الطريقة التي يأملون أن يعيشوا بها أو يتوقعون أن يعيشوا بها (ص ٢٩-٣٠). وفي عالم، مثل هذا تكون مشكلاته مثل تطلعات ورغبات سكانه، عولمية. ومن ثمَّ فهي لا تسمح بحلول محلية للمشكلات، فما من حلول محلية لمشكلات تصدر عن العولمة وتحييها العولمة.

وما دام الكوكب يخضع إلى العولمة السلبية وحدها، فلا سبيل إلى تحقيق الأمان، ناهيك عن ضمانه، داخل بلد واحد أو في مجموعة منتقاة من البلدان، إذا اعتمدت على وسائلها الخاصة وحدها، ولا سبيل إلى تحقيق الأمان في

انفصال عن بقية العالم (ص ٣١). ولا يمكن جمع شمل السلطة والسياسة إلا على المستوى العالمي أيضاً. (ص ٤٧)

لذلك يرى باومان أن الانتقال من العولمة السلبية إلى عولمة إيجابية تحقق العدل لأبناء آدم كلهم، يحتاج إلى حلول بمستوى الكوكب، وابتکار أدوات تعين السياسة على الارتفاع إلى المستوى الذي استقرت فيه السلطة في الفضاء العولمي، ومن ثم تمكينا من استعادة السيطرة على القوى التي تشكل وضعننا المشترك، وتحديد نطاق مسؤولياتنا وحدود حررتنا في الاختيار، تلك السيطرة التي تفلت من أيدينا أو سقطت منها، فشبح الخوف لن يطرد حتى نعثر على تلك الأدوات (أو لنكن أكثر دقة، حتى نشكل تلك الأدوات). (ص ٤٨)

كما أن توحيد السلطة والسياسة هو المشكلة، وربما يكون المهمة الصعبة التي ستواجه القرن الحادي والعشرين باعتبارها التحدي الأكبر؛ فجمع شمل الزوجين المنفصلين تحت سقف الأمة/ الدولة ربما يكون أقل الاستجابات الممكنة الواجدة لمواجهة ذلك التحدي. (ص ٤٧)

والطريق لتحقيق ذلك يبدأ من إدراكنا أنه لا يمكننا ردم الهوة السحرية الناتجة عن الحداثة السائلة التي تلوث حياة الأفراد، بالجهود الفردية وحدها، ولا يمكن ردمها كذلك بالسبيل والموارد المتاحة داخل سياسة الحياة القائمة التي يديرها المرء بنفسه.. لكن ردمها أمر متعلق بالسياسة، السياسة بآلف ولام التعريف. وعودة المجال العام، ذلك المكان الوسط، العام/الخاص، الذي تلتقي فيه سياسة الحياة بالسياسة الكبرى، حيث تترجم المشكلات الخاصة إلى لغة القضايا العامة، وحيث يبحث الناس عن حلول عامة لمشكلات خاصة ويناقشونها ويجمعون عليها<sup>(١)</sup>.

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٦.